شاهد على العصر (١)

● فى لقاء أجرته إذاعة جمهورية مصر العربية مع الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى وأذاعته من خلال برنامج « شاهد على العصر » فى حلقتين : أولاهما فى مساء الأحد الموافق للثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ (١٦ نوفمبر سنة ١٩٨٦ م) والثانية فى الأحد التالى .. فى هذا اللقاء دار الحوار صريحاً حول كثير من المسائل التى تهم المسلمين وتشغل أفكارهم فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقدّم الإذاعى الكبير الأديب الشاعر الأستاذ عمر بطيشة - مقدم البرنامج - الحلقه الأولى من الحوار بقوله :

أيها الأصدقاء .. يتساءل بعض المراقبين عن حقيقة الصحوة الإسلامية المعاصرة ، ويختلفون حول تقييمها ، وترتبط معظم التساؤلات حول مواجهة الإسلام بتحديات العصر . والمواقف الجديدة فى السياسة والاقتصاد والمجتمع .

لذلك نطرح اليوم تساؤلات تدور حول : قضايا السَلَفية والتجديد ، والأصالة والمعاصرة ، والوحدة والتفرق ، والغزو الفكرى والثقافى ، والدعوة الإسلامية خارج الأمة الإسلامية . وكلها تساؤلات نقدمها إلى شاهدنا على العصر اليوم ، وهو أحد اعلام المجددين فى الفكر الإسلامى المعاصر . وقد وُصِفَ بأنه من المتميزين بالاعتدال بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر .

ولد عام ١٩٢٦ وحفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره ، وأكمل تعليمه فى معاهد الأزهر الشريف حتى حصل على الدكتوراة عام ١٩٧٣ ، وكان موضوع رسالته عن « الزكاة وأثرها فى حل المشكلات الاجتماعية »

له أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفاً [١] ، تُرجم الكثير منها إلى عدد من لغات المسلمين وبعض اللغات العالَمية ، كما طُبِعَ معظمها مرات عديدة . كما شارك فى معظم المؤتمرات والندوات والملتقيات الإسلامية على إمتداد العالَم الإسلامى. ولنا معه حوار نرجو أن يقدم لنا فيه شهادة على العصر .

---

(١) زادت الآن على الخمسين ، كما تشهد بذلك قائمة كتبه .

● الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى عميد كلية الشريعة بقطر . أهلاً بكم ..

الحقيقة هى تساؤلات عديدة تلك التى جاءت فى المقدمة التى قلتها الآن، ولكننا نرجئها إلى أن نستمع من فضيلتكم أولاً إلى مجمل رؤيتكم العامة لهذا العصر ، وأهم الظواهر والمتغيرات والملامح التى ترصدونها فيه وأهم ملاحظاتكم عنه .

● ● بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه .

وبعد ..

فإن الشهادة فى نظرى كمسلم توجب على الشاهد أموراً . من هذه الأمور : أن يأتى الإنسان بالشهادة على وجهها ، كما يقول القرآن الكريم ، وكما يقول النبى ﷺ: « على مثل الشمس فاشهد » .

ثم الشهادة يجب أن تكون منصفة ، عادلة ، لا يميل الإنسان فيها إلى أحد ، ولا يمنعه من العدل حب ولا بغض ، كما فى القرآن الكريم : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ (٢) .

الشهاده هذه صفة من صفات المسلم : أن يكون قائماً بالشهاده : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٣) .

وأن يقوم بها مخلصاً لله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ (٤) .

ومن هنا كان مطلوباً من الإنسان إذا شهد أن يشهد بحق وعدل وحَيْدَة . وخصوصاً إذا شهد على العصر ، فهو لا يشهد فى قضيه جزئية بين فردين ، أو بين زوج وزوجته ، إنه يشهد على « العصر » ، ومن هنا كانت المسئوليه كبيرة .

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) المائدة : ٨

(٣) المعارج : ٣٣ (٤) الطلاق : ٢

وقد وصف الله هذه الأمة بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .. فأرجو أن تكونَ شهادتى من النوع الذى يرضى الله تبارك وتعالى .

● إن شاء الله .. ونحن سعداء بهذه المقدمة التى تعمق خط البرنامج وفكرته، وهذا يشرفنا كثيراً ويسعدنا أيضاً .

إذن ننطلق مع العالِم الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى إلى الرؤية العامة والمجملة لهذا العصر .

● ● هذا العصر شهدنا فيه تغيرات كثيرة ، وكثيرة جداً ، بل هو عصر التغيرات السريعة والمفاجئة التى لم تكن تخطر ببال أحد ، شهدنا تغيرات فى مجال العلم .. ثورة التكنولوچيا ، العلم الذى غزا الفضاء ، عصر الصناعة الثانى - كان هناك عصر الصناعة الأول وهو الذى تُوَفِّر فيه الآلة الجهد البدنى للإنسان - الآن نحن فى عصر الصناعة الثانى الذى تُوَفِّر فيه الآلة الجهد الذهنى للإنسان .. عصر «الكومبيوتر »

نعم .. هى الثورة الصناعية الثانية ، شهد عصرنا هذه الثورة العلمية فى مجالات الفضاء والكومبيوتر ، والثورة البيولوچية وعلوم المستقبل ، .. الثورة فى علوم الحياة .. الهندسة الوراثية ، تحكم فى الچينات وفى جنس الجنين ، أشياء أصبحت هائلة - هذا ما شهدناه - وإذا كان لى من ملاحظة على ثورة العلم فى عصرنا فهنا أقف وقفتين :

الوقفة الأولى : أن العلم أول ما ظهر كان يبدو منافياً للدين ، لأنه ظهر فى الغرب - فى أوروبا - وكانت أوروبا فى وقت من الأوقات - فى عصر محاكم التفتيش وغيرها - تقف الكنيسة ضد أى مكتشفات أو مخترعات أو تقدم فكرى ، باسم الدين للأسف . فلما انتصر العلم كان فى ظاهر الأمر أنه انتصار على الدين .

---

(١) البقرة : ١٤٣

والواقع أنه لم يكن انتصاراً على الدين - من حيث هو - ولكن كان إنتصاراً على الكنيسة الغربية ورجالها ! فأخذ العلم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر موجة أنه مناوئ للدين .

جاء القرن العشرون فإذا بالعلم يسير فى مسار المواكبة للدين والتأييد للدين، وهذا مكسب كبير لنا نحن الذين نرى أن الدين هو جوهر الوجود وسر الحياة . ولا قيمة للوجود ، ولا للحياة ، ولا معنى لها إذا لم يكن هناك دين ، ولم يكن هناك إله ، ولم يكن هناك آخرة .

العلم إذن أصبح فى صف الدين ، وأصبح يدعو إلى الإيمان .. وهذه ملاحظة أولى على هذه الثورة العلمية الضخمة التى حدثت فى هذا العصر .

الملاحظة الثانية : الملاحظة الأولى كانت سارة .. أما الملاحظة الثانية فهى مؤسفة ومحزنة ، وهى أننا - نحن المسلمين ، نحن العرب - ما موقفنا من هذه الثورة العلمية ؟ ما موقفنا من هذه الآفاق ؟ لا زلنا للأسف عالة على غيرنا . مع أن العلم عندنا عبادة ، نحن المسلمين ، والتفكير - كما يقول العقاد رحمه الله - هو فريضه إسلامية . نحن نتعبد بالعلم (نعتبر العلم عبادة) ، والمنهج العلمى التجريبى الذى عرفه الغربيون أساساً اقتبسوه من الحضاره الإسلامية، اعترف بهذا كثيرون مثل : بريفولت ودرايبر وچوستاف لوبون ، وجورج سارتون... وغيرهم .

أخيراً .. رجاء جارودى الذى اهتدى إلى الإسلام . ، هؤلاء اعترفوا بأن المنهج التجريبى الاستقرائى .. هذا منهج إسلامى أخِذَ من الحضاره الإسلامية .

فرانسيس بيكون - الذى يعتبر أبا الفلسفة التجريبية ، وقبله سميه « روجر بيكون » هؤلاء كانوا تلاميذ الحضارة الإسلامية ، وكانوا رسل الحضارة الإسلامية العربية إلى الغرب . وكانت الحضارة الإسلامية هى حضارة العلم فى العالم كله ، وكانت اللغة العربية هى لغة العلم لعدة قرون ، وكانت المراجع العلمية هى المراجع الإسلامية المكتوبة بالعربية فى الطب والفيزياء والكيمياء والتشريح والفلك .... إلى آخره .

والأعلام والأسماء العربية مثل ابن رشد ، ابن سينا ، الرازى ، البيرونى، الزهراوى ، وابن الهيثم ، وابن النفيس ... وغيرهم . هذه الأسماء كانت أسماء عالَمية . لم تكن مجرد أسماء إسلامية أو عربية . فللأسف نحن فى عصرنا هذا ننظر إلى الماضى يوم كنا قادة الدنيا فى الجانب العلمى فى كل ناحية من النواحى ، ولم يكن هناك انفصال بين العلم والدين قط . ابن رشد الفقيه القاضى - صاحب كتاب « بداية المجتهد » فى الفقه - هو صاحب « الكليات» فى الطب .. الذى أصبح مرجعاً فى الغرب بَعْدَه لعدّة قرون ، وهو نفسه أكبر شارح لأرسطو فى الفلسفة للغرب ، وكان هو مرجع الغربيين ، ومن خلاله تعرفوا على فلسفة أرسطو (وهو أعظم فلاسفة المسلمين على الإطلاق ، فى نظر بعض مؤرخى الفكر).

ولم يكن عندنا نحن المسلمين انفصال بين العلم والدين ، ولم يكن هناك شئ اسمه دينى وشئ غير دينى ، أعنى هذا التقسيم الذى نعرفه فى عصرنا هذا : هناك تعليم دينى وتعليم غير دينى ، ورجل دين ورجل غير دين . هذا تقسيم غير معروف عند المسلمين ، العلم كله دينى .. والناس كلهم رجال لدينهم ، ليس هناك طبقة معينة - كهنوتية أو إكليروس - هناك متخصص فى علم الدين ، كما أن هناك متخصصاً فى علم الطب . وهذا التخصص تفرضه طبيعة الحياة ويفرضه الإسلام نفسه . لا بد فى كل فن من الفنون وفى كل علم من العلوم أن يوجد المختصون والخبراء : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (١) ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٢) ، ﴿ فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَتَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

هذا فى كل فن وفى الدين أيضاً : ﴿ فَلَولَا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ (٤) .. القرآن قال هذا حينما نفر المسلمون كلهم للجهاد ، وإذا نفر الجميع للجهاد فمَنْ يُعلّم الناس أو يفقههم ؟

﴿ فَلَولَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ ..

---

(١) فاطر : ١٤ (٢) الفرقان : ٥٩

(٣) النحل : ٤٣ (٤) التوبة : ١٢٢

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ (١) .

فهاتان ملاحظتان على عصرنا بالنسبة للتطور العلمى الضخم الذى شهده عصرنا .

ومن الأشياء التى لاحظناها فى هذا العصر - على المستوى العالَمى - سقوط الخلافه الإسلامية .. نحن لم نَشهد يوم سقوط الخلافة ولكن شهدنا آثارها . قرأنا شَوقى وهو يرثى الخلافة فيقول مخاطباً لها :

عادت أغانى العُرْسِ رَجْعَ نُواح ! ونُعيتِ بين مَعالِم الأفـــراح !
كفِّنـتِ فـى يوم الزفـاف بثوبِـــــه ودُفنتِ عند تبلّج الإصبـاح !

● عندما توفى أمير الشعراء - سنة ١٩٣٢ - كان عند فضيلتكم ست سنوات فقط ؟

● ● نعم .. ولكن قرأنا شوقى بعد ذلك ، وعشنا معه أيام المسلمين ، ومآسى المسلمين ، فسقوط الخلافة الإسلامية كان من أبرز الأحداث ؛ لأنه - على رغم ما كان على الخلافه العثمانية من مآخذ وما فيها من نقاط ضعف - كانت تمثل آخر تجمع للمسلمين تحت راية العقيدة . .

كان المسلمون يُكوِّنون أمة ضخمة تمضى تحت راية الإسلام ، ولم يحدث بعد ذلك أن تجمع المسلمون تحت راية واحدة ، مع أننا نجد هناك كتلاً ضخمة تحت عناوين شتَّى : قومية أو مذهبية ، أو غير ذلك ، ولكن فقد المسلمون بفقد الخلافة الهوية الإسلامية الجامعة .

● هذا .. وإننا فى عصر التكتلات والتجمعات الكبرى فى العالَم .

● ● نحن فى عصر التجمعات والتكتلات الكبرى ، ولكن لا يُراد للمسلمين وحدهم أن يتكتلوا ويتجمعوا ليظلوا أمماً شتىً ودولاً شتىً . نحن المسلمين - كما أمرنا الله - أمة .

---

(١) التوبة : ١٢٢

القرآن يقول : ﴿ وكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (١) ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً ﴾ (٣) فهى « أمة » ولكن الاستعمار والقوى المعادية للإسلام أرادتنا أن نكون « أمماً » يجافى بعضنا بعضاً ، وربما يقاتل بعضنا بعضاً ، نتقاتل أحياناً على حدود سياسية !

أتعجب حينما أنظر فى الخريطة العالمية ، فأجد دولاً ضخمة على مساحة الخريطة ، ثم أنظر فى الدول الإسلامية . فأجد دويلات لا تكاد تراها على الخريطة .. تحتاج إلى مجهر حتى تراها !!

ما الذى مزّق هذه الدول ؟

بعض الناس قال : كيف انتصرت إسرائيل عليكم وأنتم كذا وأربعون دولة أيها المسلمون ؟؟

قلت : إنها انتصرت لأننا كذا وأربعون دولة ! لو كنا دولة واحدة ما استطاعت أن تنتصر علينا .

ليس المهم هو الكثرة . إن رسولنا ﷺ حذرنا من عصر نكون فيه « كثرة كغُثاء السيل » - الكثره الغثائية - وغُثاء السيل هو ما يحمله السيل من قش وحطب وورق وأشياء غير متجانسة ، أشياء خفيفة سطحية ، وليس بينها تجانس، وليس لها هدف .. لأن السيل ليس له مجرى معلوم كالنهر ، النهر له منبع ومجرى ومصب . أمّا السيل فلا تعرف أين يتجه .

فحينما تكون الأمة فى المرحلة الغُثائية تكون هذه قيمتها . فلا يهم الكثرة وحدها .

نحن المسلمين حوالى « ألف مليون » - أعنى مليار بل أكثر - من الناحية العددية : كمٌ كبير ، ولكنه كَمٌ بلا كيف ، كثرة كغُثاء السيل كما جاء فى

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) آل عمران : ١١٠ (٣) المؤمنون : ٥٢

الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود : « ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم و ليقذفنّ فى قلوبكم الوهن » . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدينا وكراهية الموت » .

الصحابة يسألون عن الوهن ، لا يسألون عن معناه اللغوى ، فمعناه اللغوى معروف أنه الضعف . إنما يسألون عن علّته ، عن سره ، عن سببه ، نحن كثرة ، فما الذى يجعل عدونا يتجرأ علينا وتنتزع المهابة منا ؟

المسلمون الأوائل كانوا يُنصرون بالرعب مسيرة شهر ، كان خالد بن الوليد حينما يكتب إلى الأكاسرة والقياصرة وهؤلاء الناس يختم رسائله بهذه الكلمة : « وإلا غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ، فأما إذا ركن الناس إذا إلى الدنيا . وكوهوا الموت ، وأحبوا الحياة ، وأخلدوا إلى الأرض فلن يخيفوا عدواً ، ولن ينصروا صديقاً .

فالمهم أننا نحن المسلمين فقدنا هذا التجمع والتكتل فى عصر هو عصر التجمعات والتكتلات .. أنواع شتّى من التجمعات والتكتلات ، بعضها عسكرى ، وبعضها سياسى ، وبعضها ديني ، وبعضها اقتصادى ، وبعضها ثقافى ، أنواع .. حتى المختلفون قديماً أصبحوا الآن يتقاربون بينهم ، بين بعضهم بعض .

اليهودية والنصرانية منذ قرون عديدة كان بينهم خلافات وصراعات ، واليهودية متهمة بقتل المسيح والتآمر عليه ، أخيراً رضوا أن يوجدوا بينهم شيئاً من التقارب والوفاق ، وأصدر الڤاتيكان وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح .

سياسة الوفاق المعروفة بين المعسكر الرأسمالى والمعسكر الشيوعى أو المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى .....

ما بالنا نحن المسلمين لا يُراد لنا أن نتقارب أو نجتمع . أو يكون لنا هدف مرسوم؟ هذا للأسف من كيد أعدائنا من ناحية ، ومن ضعف أمرنا من ناحية أخرى .

● سيادتكم تقولون : « لا يُراد لنا » وكأن أمرنا معلّق بإرادة الآخرين ، وهذا أحد العلل التى نشكو منها : أننا نكل أمرنا دائماً إلى الآخرين ، لماذا لا يكون الزمام فى أيدينا ؟ هذا هو السؤال ؟ ..

● ● هذا فى الواقع كلام طيب جداً . وأنا كتبت هذا فى بعض ما كتبت . قلت: إننا كثيراً ما نُعلّق كل أوزارنا وكل أخطائنا وكل تقصيرنا على غيرنا ، وأحياناً نقول : إنه خُطّطَ لنا ، والقوَى الأخرى خططت لنا : اليهودية العالَمية ، والاستعمار العالَمى ، والشيوعية العالمية ، وكذا وكذا ، وكأننا - كما ذكر بعضهم - أحجار على رُقعة الشطرنج !. وكأن لا إرادة لنا ولا اختيار .

الحقيقة أنه لا بد أن نُفرِّق بين أمرين ، أنا فى الحقيقة منهجى فى الحياة دائماً هو المنهج الوسط ، هناك أُناس يُهوِّلون من أمر القوَى الخارجية وتأثيرها ، بحيث نبدو نحن وكأننا لا اختيار لنا قط ، كأننا مُسيَّرون لا مُخيَّرون ! وهذا نوع من الجبرية السياسية كالجبرية الدينية . ففى العقائد هناك أُناس يسمونهم «الجبريين» وهم الذين يقولون : إن الإنسان لا إرادة له ، وأنه مُسيَّر لا مُخيَّر ، وهو كالريشة فى مهب الريح . وهناك أيضاً جبرية سياسية أى تجعل أننا ليس لنا أى إرادة ، القُوىَ الخارجية هى التى تُسيِّر أمورنا كلها ولا نملك أى قرار ... وهذا تهويل .

أيضاً بعض الناس يقول : لا .. ليس هناك أى قُوَى ، ونحن الذين نصنع مصيرنا بأيدينا ، والواقع أن هناك فعلاً تأثيرات خارجية تؤثر على كثير من أمورنا ، وتضغط علينا أحياناً ضغوطاً علنية ، وأحياناً ضغوطاً خفية ، ولها أصابع تلعب من وراء ستار حيناً ، وتلعب على المكشوف حيناً آخر .. لا ننكر هذا ، والأدلة على هذا كثيرة ، ولكن نظل نحن المسئولين - وحتى هذا - نحن مسئولون عنه كذلك :

لماذا يُخطِّط الآخرون لنا ، ولا نخطط لأنفسنا ؟!

إلى متى نظل نقول : القوَى المعادية خططت لنا ؟

لماذا نظل نحن ضحايا مخططات الغير ولا نخطط لأنفسنا ؟ !!

فنحن مسئولون أيضاً ..

وهنا فى الواقع - فى موضوع المسئوليه هذا - أمر هو أحد سلبياتنا . إننا - عادة - كل واحد يحاول أن يرمى الحمل على غيره . حينما تسأل :ما السبب فيما نحن فيه من تخلف ؟ ما السبب فيما نحن فيه من خلل اقتصادى أو اجتماعى ، أو خلل أخلاقى أو سياسى ؟ فبعض الناس يُحَمِّلون المسئولية على الحكّام ، وبعضهم يلقون المسئولية على العلماء ، وبعضهم يقول : المسئولية على القُوَى الخارجية .

والواقع أن الكل مسئول ، ويجب أن يتحمل كلٌّ مسئوليته . وكما جاء فى الحديث المشهور عن النبى ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » فالكل مسئول ، وإن كانت المسئولية تتفاوت .

أضرب لك مثلاً .. فبعض العلماء والدعاة فى يوم من الأيام كان يكلم بعض الناس فقال له أحد الحاضرين : صار لكم أربعون سنة وأنتم تتكلمون ، فماذا عملتم ! ؟ فكان ردّه : وأنتم لكم أربعون سنة وأنتم تسمعون ، فماذا عملتم !؟

نعم .. رد مفحم . فلماذا نجعل المتكلم عليه مسئولية ، والسامع ليس عليه مسئولية ؟ أصبحنا شريكين معاً . ومن هنا فإن الكل عليه المسئولية .

من الأحداث المهمة التى حدثت فى هذا العصر : أن هذا العصر حدث فيه تغير بين أوائله وأواخره . نحن الآن على مشارف القرن الحادى والعشرين .. فى أوائل هذا القرن كان هناك انحسار فى جانب التدين ، وانحسار نحو الجانب الإسلامى وبخاصة الجانب الفكرى ، فالغزو الفكرى عَمِلَ عَمَلَه ، خطورة الاستعمار ليس فى احتلاله الأرض فقط ، احتلال الأرض ليس مشكلة ؛ لأنه لا بد أن يأتى يوم يجلو عن الأرض ويحمل عصاه ويرحل عن الديار ، إنما الخطوره حينما يحتل الأنفس والعقول . خصوصاً أن احتلال الأرض أمر حسى يُشاهَد فيقاوَم ، أمّا احتلال العقل فأمر معنوى . لا يُلمَس ولا يُحَس ، ولذلك أحياناً تتبعه وأنت راضى النفس ، وأنت مختار . ويخطط لك وأنت تمشى وراءه ، وهذه هى

الخطورة ، أن يفتنك عن نفسك . ولم يكن فى المقابل - من الناحية الإسلامية - لم يكن هناك إمكانات تقابل هذا الغزو فى أول الأمر ، أستطيع إن أقول : إنه كان هناك انحسار حتى إنه فى وقت من الأوقات لم تكد ترى من المتدينين إلا القليلين ، كبار السن والعجائز من الناس ، الإنسان بعد أن يحال إلى التقاعد يذهب إلى المسجد ، يفكر فى الصلاة وفى التوبة ، يفكر فى الحج والعُمرة ، يقرأ بعض الكتب الدينية .

الآن نجد الأمر تغيَّر ، نحن فى عصر الصَحوة الإسلامية التى أشرتَ إليها فى مقدمة هذا البرنامج النافع إن شاء اللّه ، عصر الصحوة الإسلامية نحن نعيشه الآن ، الانبهار الذي حدث من قبل بالحضارة الغربية بدأ ينقشع لأسباب كثيرة . من هذه الأسباب أن الحضاره الغربية جاءت من المستعمر فتحررنا مع المستعمر فبدأنا نتحرر من آثاره الفكرية والاجتماعية والتشريعية .... إلى آخره .

من ناحية أخرى : فى أوج الحضارة الغربية لم يكن يظهر فيها عيوب ، كانت عيوبها مغطاة بالجوانب الكثيرة الحسنة فيها ، الآن بدأت عيوبها تنكشف حتى للمفكرين من أهلها ، وللنقَّاد منها . وجدنا أُناساً كثيرين من مفكرى الغرب ينقدون الحضارة الغربية مثل شبلينجر وتوينبى - المؤرخ الشهير فى كتاباته ، وأليكسيس كاريل .. الكثيرون من نُقَّاد الحضارة الغربية حتى رجاء جارودى أخيراً ، الحضارة التى تنفق عشرات المليارات على السلاح ، على حين هناك مليارات من البَشر ، لا تجد القوت ، ولا تجد الدواء .. هذه ليست حضارة ، وكما قال أحد المفكرين الشرقيين لفيلسوف غربى : إن الحضارة الغربية استطاعت أن تجعل الإنسان يحلّق فى الهواء كالطير ، ويغوص فى البحر كالحوت ، ولكنه لم يُحسن أن يمشى على الأرض كإنسان .

المهم الجانب الإنسانى فى الحضارة ، أين الإنسان ؟!

ولذا ثار عليها أهلها أنفسهم ، . ما نسمعه وما نقرأه وما نراه من الشباب الغربيين الذين يتسمون الخنافس أو الهيبيز أو العراة ... أو غير ذلك . الذين

نراهم يخرجون إلى البرارى حفاة ، بالملابس الممزقة .. تركوا حياة الأزرار والأتوماتيك ، تركوا هذا كله ويعيشون فى الصحراء ويحيون حياة بدائية . لماذا ؟ ؟

الحياة المرفهة الأتوماتيكية هذه لم تُشبع نهمهم الروحى ، لم تملأ فراغهم العقائدى ، لم تحل المشكلات الفكرية عندهم ، لم تجب عن الأسئلة الخالدة التى يفكر فيها الإنسان وفى أجوبتها دائماً : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟

من أين جئتُ وجاء هذا العالَم من حولى ؟ وإلى أين أذهب بعد أن أعيش أياماً تطول أو تقصر ؟ وبين الحياة والموت : لماذا أعيش ؟ وما هى رسالتى ؟

هل أنا جئت لمجرد أن آكل وأشرب ، وألهو وألعب ؟

أنا تراب ! جاء من تراب ، ويمشى على التراب ، وينتهى إلى التراب !

قصة الحياة هى كلها « أرحام تدفع ، وأرض تبلع »! ولا شئ وراء ذلك.. ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (١) كما قال الدهريون قديماً..

هؤلاء ثاروا على هذه الحضارة ، ابناؤها ثاروا عليها وتمردوا على آليتها ، لأنهم لم يشعروا بالسعادة.إنهم يحتاجون إلى شئ آخر ، يحسون به ، وإن لم يعرفوا ما هو !

والواقع أن الذى يملك هذا الشئ الآخر الذى يملأ الفراغ الروحى والفكرى عند الإنسان ، ويعطيه الأجوبة عن الأسئلة التى يسألها ، هو الإسلام ، الذى يعطى الإنسان الآخرة ولا يحرم من الدنيا : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

الإنسان فى حاجة إلى منهج متوازن ، المنهج الذى لا يحطم خصائص الإنسان الذاتية ، لا يحطمها من الداخل ، والذى يوفر له السعادة الحقة ، ليس مجرد منهج يوفر له المتعة ولا يوفر له السكينة . يوفر له الرفاهية ولا يوفر له الطمأنينة القلبية .. هذا هو المنهج الذي يحتاج إليه الإنسان فى عصرنا ، ولا يوجد إلا فى الإسلام .

---

(١) الجاثية : ٢٤ (٢) القصص : ٧٧ (٣) البقرة : ٢٠١

● ولهذا يرصد العالم الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى صَحوة إسلامية فى هذا العصر ، ولهذا فضيلتكم تسمونه عصر الصحوة الإسلامية ؟

● ● نعم أنا أقول : عصر الصحوة الإسلامية ، وهذه الصحوة لها مظاهرها . نجد آثار هذه الصحوة فى كل مكان ، هى صحوة عالمية أولاً ، وأنا أقول هذا عن شهادة فعلاً .

إذا اعتبرتنى شاهداً فى هذا العصر أقول عن شهادة : لمستُ هذه الصَحوة فى مصر ، ومصر - كما رأيتُ - من أرجى بلاد اللّه للإسلام ، لمستها فى العالَم العربى كله ، فى الجناح المشرقى وفى الجناح المغربى ، وجدت الصَحوة الإسلامية فى العالَم الإسلامى خارج العالم العربى . بل أقول : وجدت هذه الصحوة خارج العالَم الإسلامى ، هناك فى أمريكا - وقد زرتها أكثر من ست مرات وذهبت إلى أوروبا مراراً عديدة ، وذهبت إلى الشرق الأقصى : وجدتُ هذا فى ماليزيا ، فى إندونيسيا ، فى سنغافوره ، وفى هونج كونج ، فى كوريا ، فى الفلبين ، فى اليابان ، فى الجاليات الإسلامية المختلفة التى تعيش أقلية . ومع هذا وجدت المسلمين الملتزمين بالإسلام .. فهى صحوة عالمية .

وهى صحوة شباب أكثر منها صحوة شيوخ . كان التدين قديماً - كما أشرت من قبل - يكاد يكون مقصوراً على العجائز والشيوخ والكبار من الناس ، الآن اذهبْ إلى المساجد تجدْ معظم الذين يؤمون المساجد من الشباب الغض ، وأى نوع من الشباب ؟ إنهم الشباب المثقف . معناه أننا تخلصنا من عقدة النقص القديمة : أن الدين للمتخلفين أو للأميين أو لأهل القرى . لا .. أصبح الدين الآن للشباب المثقف ، للشباب وللشابات أيضاً .. تجد الآن المسلمات الملتزمات والمصليات الصائمات المحجبات .

فى وقت من الأوقات - ولا أكتمك حديثاً - كان الإنسان يمشى فى شوارع العواصم الكبرى لبلاد الإسلام ، فلا يكاد يجد امرأة محجبة .. قضية المرأة كانت من القضايا التى هُزمنا فيها بسرعة أمام الحضارة الغربية .. بعد أن كانت المعركة فى أول الأمر هى مسألة سفور الوجه . أعنى أن المرأة تخلع النقاب - النقاب فقط - وتخرج سافرة وتتعلم وتذهب إلى المدرسة ، وتعمل إذا احتاجت إلى العمل .

فى وقت من الأوقات وقف الناس ضد هذه الأوليات ، وللأسف وقف بعضهم ضد هذه الأشياء باسم الدين ، والدين من هذا بُراء ، المرأة المسلمة فى العصر الأول شاركت فى الحياة مشاركة فعالة سجلتها كتب السُنَّة والسيرة النبوية والتاريخ الاسلامى .. الآن نرى فى الجامعات والكليات والمدارس الفتيات المحجبًات بالآلاف ومئات الآلاف ، لهذا نحن الآن نقول : إنها صحوة شباب، وصحوة شابات .

وفى مواسم الحج والعُمرة تجد الآن تطوراً قد جَدَّ عن أيام زمان ، فى صغرنا كان الذين يذهبون إلى الحج هم الناس الذين يريدون أن يختموا حياتهم بحجة مبرورة ، ليعود أحدهم من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فكان الإنسان الذى أكل الدهر عليه وشرب ، وأصبح على حافة القبر ، يذهب ليحج .. الآن ما عادت هذه الفكرة قائمة ، معظم الذين يحجون الآن من الشباب .

إنها صحوة سلوك ، وصحوة فكر وعقل أيضاً ، أصبح الشباب يريد أن يقرأ عن الإسلام ، أصبح الكتاب الإسلامى هو الكتاب الأول فى سوق التوزيع ، اذهب إلى أى معرض كتاب تجد الكتاب الإسلامى هو الكتاب الأول الذى يضرب الرقم القياسى ، وهذا بشهادة الخبراء والأرقام وشهادة الإحصائيات ، بل هناك فى بعض البلاد التى زرتها مثل الجزائر الشقيقة قالوا لى : إنه حين يُقام معرض يبيت الشباب عند باب المعرض ، حتى إذا فُتِحَ فى الصباح هجموا على الكتب الإسلامية ، فنفدت فى ساعات ، لأنه تأتى أعداد محدودة من الكتب لطلب غير محدود ، فهى مسألة العرض والطلب - وهى مظاهر لظاهرة واحدة هى الصحوة .

ومن مظاهر هذه الصَحوة : المؤسسات الاقتصادية الإسلامية .. البنوك الإسلامية ، شركات الاستثمار الإسلامى ، الشركات التى تعمل فى الاقتصاد الإسلامى والتأمين الإسلامى ، وهذا فى بلاد كثيرة .

وأيضاً فى وقت من الأوقات كان يقال : إنه لا يمكن أن تقام بنوك بغير فائدة . كان يقال لنا من قبل: إنه لا حياة بغير اقتصاد ، ولا اقتصاد بغير بنوك ، ولا بنوك بغير فائده ! فأريحوا أنفسكم .

كان فينا مَنْ يقول : إننا لا بد أن نأخذ الحضارة الغربية بعجرها وبجرها ، بخيرها وشرها ، بحلوها ومرها ، ما يُحَب منها وما يُكرَه ، وما يُحمد منها وما يُعاب ، ومَنْ ظن غير ذلك فهو خادع أو مخدوع !

● هذه مدرسة قائمة فى الفكر فعلاً ، وما زالت موجودة للآن !!

● ● موجودة فعلاً ، ولكن كان صوتها عالياً قبل ذلك ، بل كادت تكون هى المسيطرة على التثقيف والتفكير ، والمنفردة بالتأثير والتوجيه ، الآن هى موجودة ، ولكن صوتها أصبح ضعيفاً ، وأصبحت الآن تحاول أن تتملق الفكر الإسلامى ، وتحاول أن تغلف نفسها بغلاف ما ، لم تعد تصرح بهذا . فهذه المدرسة موجودة ولكن لم تعد بالقوة التى كانت عليها .

بعد هذا - أى بعد هذه المرحلة - جاءت مرحلة « التبرير » : نحاول أن نلبس الخواجة عمامة ! أعنى : نحاول أن نسند الأوضاع التى جاءتنا من الغرب بفتاوى شرعية !

بعد ذلك أصبحنا فى موقف الدفاع . أى انتقلنا إلى مرحلة اخرى هى مرحلة الدفاع ، وكأن الإسلام فى قفص الاتهام ، ومهمتنا أن ندافع عن هذا المتهم !

لماذا لا نكون كالغربيين فى كذا ؟

كأن الأصل هو الغرب وأن الناس جميعاً يجب أن يكونوا فى تفكيرهم وسلوكهم غربيين !

وإذا لم نوافق - نحن المسلمين - الغرب فنحن محتاجون إلى حجة نحتج بها، وندافع بها عن أنفسنا !

كان هذا فى وقت من الأوقات ، أستطيع أن أقول إننا قد تجاوزنا هذه المراحل

كلها ، وأصبحنا الآن فى مرحلة المواجهة ، نقول للغربيين : نحن لنا حضارتنا ولكم حضارتكم ، لكم دينكم ولنا ديننا ، لكم عملكم ولنا عملنا . نحن لسنا أذيالاً لأحد ولا أتباعاً لأحد .. نحن رؤوس لأنفسنا . بل نحن الأمة المتميزة، نحن الأمة الوَسط ، نحن الذين نملك منهجاً لا يملكه غيرنا . هذه هى المرحلة الجديدة - مرحلة المواجهة - مرحلة الصحوة الإسلامية التى نقولها . ولكن أنا كشاهد - كما قلت - أرجو أن أكون عادلاً . أقول أيضاً : إن الصحوة الإسلامية تحتاج إلى ترشيد وتسديد .. ففيها فجوات ، وفيها أخطاء ، وفيها جوانب ضعف يجب على المفكرين والدعاة والعلماء أن يُرَشّدوها . هذه الصحوة فيها من خير ما أنتجه هذا العصر ، ونعتبر الشباب المسلم المتدين هذا هو أعظم ما فى بلادنا الآن ، وهذا الترشيد والتسديد لا يكون بإتهامها كما يفكر بعض الناس . إنما أن نعامل هؤلاء بروح الأبوة .. بوسطية الإسلام ، لا بإسلام الغلاة والمتشددين ، ولا إسلام أولئك الذين أيضاً يريدون أن يُحمِّلوا الإسلام ما ليس فيه . فنحن مشكلتنا أننا نقع بين طرفى الإفراط والتفريط . هذه مشكلتنا فى معظم الأمور .

هناك أناس يريدون باسم التجديد أن يُحلّوا كل شىء ، ويبرروا الأوضاع التى جاءتنا من الغرب كما قلت لك ، أن يلبسوها عباءة إسلامية وباسم «التجديد » وهذا ليس تجديداً ، هذا تبديد وليس بتجديد !

ومقابل هؤلاء .. آخرون يريدون أن يُبقوا كل قديم على قِدَمِه . وشعارهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! وما ترك الأول للآخر شيئاً !

لا .. فكم ترك الأول للآخر ، وهناك فى الإمكان أبدع مما كان . وما دام الإنسان هو خليفه اللّه فى الأرض ، وميّزه اللّه بالعقل والإرادة ، وآتاه القُدرة على العلم والعمل والتجديد والابتكار، فنحن قادرون على أن نفعل كثيراً . مهمة الإنسان المسلم أن يبدع ويبتكر ويجدد حتى فى أمور الدين .

قامت معركة فى وقت ما بسبب كلمة « تجديد الدين » .. بعض الناس من تخوفه وتحوطه قال : ليس هناك تجديد فى الدين .. وقامت مناقشة بين فضيلة

الشيخ الشعراوى والأستاذ أحمد بهاء الدين حول هذا : هل هناك تجديد فى الدين؟ وأنا لا أرى أى مانع من استخدام كلمة « التجديد فى الدين » . بعض الناس يخاف من استخدام مثل هذه الكلمات فى غير موضعها ، ولكن هذا لا يجعلنا ننفى الحقائق ، لأن النبى ﷺ كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره قال : « إن اللّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها » ، فبنص الحديث إن الدين يقبل التجديد ، ولكن المهم أن نحدد المفاهيم ولا نتركها هلامية رجراجة ، ما المقصود بتجديد الدين ؟ هل معناه : أننا نخرج طبعة جديدة من الدين ؟ لا .. إن الدين اكتمل : ﴿ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١) ، وليس بعد القرآن وحى ، وليس بعد محمد ﷺ رسول ، ولا بعد الإسلام شريعة .. إنما معنى تجديد أى شىء هو أن تعيده إلى ما كان عليه ، يعنى إذا كان عندنا بناء أثرى - قصر أو مسجد - ونريد أن نجدده ، فليس معنى أن نجدده أننا نهدم البناء الأثرى ونقيم مكانه عمارة شاهقة حديثة ، هذا ليس من التجديد فى شىء إنما أن نحاول أن نرمّمه ونعيده إلى وضعه القديم يوم ظهر ، أن تزيل عنه الصدأ والأتربة والغبار والأشياء الطارئة عليه ، وإذا وَهَىٰ شئ منه تقويه ، بحيث يبدو كما كان من قبل، وكذلك حينما أجدد الدين أحاول أن أعود به إلى ما كان عليه فى أيام الرسول ﷺ وأيام الصحابة وأيام كان الإسلام إسلاماً ، وأيام كان المسلمون مسلمين ، أعيده إلى نقائه الأول .. إلى صفائه الأول ، نعيده ديناً ميسَّراً وميسِّراً ، ديناً يحل للناس مشكلاتهم .

● وهذه النقطة - الحقيقة - الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى - فضيلتكم كنتم تقولون الآن : إن المستغربين أو الذين يحاولون الاعتماد على الحضارة الغربية ويصبحون تابعين لها ، هذا فريق.. وفريق آخر يرى أن الحل فى إتباع الإسلام فى فطرته الأصيلة مثل ماذكرتم

---

(١) المائدة : ٣

فضيلتكم الآن : هناك فريق ثالث يوافق على الرأى الأخير ، ولكنه يريد من الإسلاميين أن يجدوا صيغة أو تصوراً لكيفية مواجهة الإسلام لقضايا العصر بالتفصيل ، يعنى نظرته للسياسة .. الأحزاب .. الاقتصاد ، المجتمع ... كل هذه مسائل ينبغى أن تصاغ على شكل نظرية إسلامية ، ما رأى فضيلتكم فى هذا ؟

● ● جماعة المستغربين ومَنْ دار فى فلكهم يريدون تفصيلات لكل شىء ، والتفصيل فى كل شىء ليس مطلوباً ، يعنى هذا - عادة - حينما يقوم اتجاه يريد أن يغير من الحياة ، هذا يأتى عادة بالأصول العامة والخطوط العريضة ، هذا ملحوظ حتى فى الماركسية ، أعنى أن ماركس لم يأت بتفصيلات . فهذه الخطوط العريضة موجودة من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنا أقول أيضاً : حتى الكثير من التفصيلات موجود بالفعل ، يعنى الآن : إذا نظرت إلى موضوع كموضوع الاقتصاد الإسلامى .. صدرت عشرات الدراسات حول الاقتصاد الإسلامى وبعضها دراسات متخصصة وبتفصيلات : فى النقود ، فى البنوك ، فى الانتاج، فى التوزيع .. فى الربا .. فى الزكاة ... فى كذا وكذا . والعشرات من رسائل الدكتوراة ، وهذا ليس بالأمر الصعب . وقد رأينا أناساً كثيرين حكموا واستمر حكمهم فترات طويلة ولم يكن عندهم برامج مفصلة ولا شىء من هذا .

● إذن .. ممكن الوصول إلى رؤية ؟

● ● ممكن الوصول إلى رؤية . وهنا الآن الفكر الإسلامى غنى ، ويستطيع أن يحدد ملامح كثيرة ، بل يمكن أن يحدد تفصيلات أكثر ، وهو ليس بالأمر الصعب إذا صدقت النية وصدق العزم ، وكما قيل : إذا صدق العزم وضح السبيل . المهم أننا انتهينا من المرحلة التى كان يجمِّد فيها الإسلام باسم أن باب الاجتهاد مغلق ، أو أننا لسنا قادرين على الاجتهاد . أو أن الأقدمين صنعوا كل شىء . لا . لا بد أن نجتهد لعصرنا وكما قال علماؤنا : إن الفتوى تتغيَّر بتغير الزمان والمكان والحال والعُرف . فالآن عصرنا تغيَّر فيه شىء كثير ، قالوا

هذا فى عصور كانت رتيبة ، بطيئة الحركة والتطور ، والأنماط تكاد لا تتغير .

فى عصرنا هذا الذى تحدثنا عنه فى أول هذا اللقاء وما فيه من تغيرات ضخمة أصبحت هناك أشياء جديدة لم يخطر للسابقين أمرها على بال . هذه كلها تحتاج منا إلى اجتهاد ، وهو ما نسميه بالاجتهاد الإنشائى ، بجوار اجتهاد آخر نسميه الاجتهاد الإنتقائى . أى أن ننتقى من أقوال الأئمة والفقهاء السابقين ما هو أَلْيَقْ بعصرنا وأوفق بمصالحنا وأولى بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

● فضيلتكم كنتم ذكرتم أيضاً الجانب الإنشائى .. هل لنا أن نعرف ما هو؟

● ● الجانب الإنشائى فى الاجتهاد : ما يتعلق بالقضايا الجديده التي لم يعرفها فقهاؤنا السابقون .. أضرب لك مثلاً فى ذلك : هناك قضايا طبية جديدة - مثلاً تتعلق بعلم الطب ، وكثير من الأشياء العلمية ، مثلاً : قضية زرع الأعضاء ، هل يجوز زرع الأعضاء ؟ هل يجوز ذلك عن طريق التبرع ؟ هل يجوز أن يبيع الإنسان عضواً منه ؟

هناك قضايا استجدت فى هذا العصر لم يكن يعرفها السابقون من علمائنا ، ولم يقولوا فيها رأياً ، فرأينا فيها رأى إنشائى - أعنى : ليس مجرد ترجيح أو انتقاء من آراء سابقة موجودة . أى نحن ننشئ شيئاً جديداً ، فهو شئ ناشئ عن تفكيرنا نحن فى ضوء الأدلة الشرعية . فهذا هو المقصود بالاجتهاد الإنشائى .

● لعل هذا المنهج الذى عرضه علينا الآن الداعية الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى فى التجديد فى الفكر الإسلامى المعاصر يذكرنا بالعبارة الشهيرة للأستاذ عباس محمود العقاد والتى أشرتم إليها فضيلتكم فى بداية هذا اللقاء : إن التفكير فريضة إسلامية ، ويمكن بهذه العباره أن نختتم هذا الجزء الأول من شهادة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى ، وأنا لم أسأل أسئلتى بعد ، فهل تأذن فضيلتكم بلقاء ثان للأسئلة المفصّلة .

● ● أنا يسعدنى ذلك إن شاء اللّه ، وأرجو أن نوفق فى الإجابه عن الأسئلة إن شاء اللّه .

* * *